وعيها لواقعها من جهة وكلما تعاظم وعيها لقضيتها من جهة اخرى . ولا نظلم رسل الوحدة العربية اذا قلنا ان هذه الوحدة وصلت الى ذروة تكاملها العام ، مع وصـــول القضية الفلسطينية الى ذروة الادراك في عقول الشعب العربي . فالواضح ان البعد القومي لحرب تشرين لا ينتهي في الجولان وسيناء بقدر ما يمتد الى فلسطين نفسها ، والحرب لم تكن لاستعادة « اراض » مفصلة في القرارات الدولية بقدر ما كانت حرب استعادة الارض . اعادة التاج الى الام ، الى الرمز .

هذه ، كانت الصورة ، منذ صباح السادس من تشرين . يومها ، قدر لي ان اكون في الامم المتحدة بالذات ، وهناك شاهدت عملاقا عربيا يخرج من القمقم . مرة واحدة. هناك شاهدت العالم يعترف بالوطن العربي ـــ بعضه مرغم وبعضه عن حب ـــ وهناك بعد عام ، سوف يعترف هذا العالم بالجزء العربي الذي كان يرفض قبل الان ان يصدق انه يراه فعلا ! فلسطين .

● في بداية ١٩٧٣ جاء وفد صحافي من المانيا الغربية بدعوة رسمية الى بيروت. وبين المقابلات التي شملتها الزيارة واحدة مع محرري «النهار» . كان أعضاء الوفد يسألون والمحررون يجيبون . وكان الموضوع واحدا طبعا : فلسطين والفلسطينيون .

كان معظم أعضاء الوفد الالماني من الصحافيين المتقدمين في السن ، كما كان معظمهم يبدو وكأنه يريد ان يفهم فعلا او على الاقل ان يتفهم . غير ان واحدا منهم ، وكان الاصغر سنا ، بدا وكأنه يريد أن يناقش لا ان يسمع .

وقد سألني هذا عما اتوقعه كصحافي يكتب في القضايا الدولية . وكان فحوى الجواب : ان الجسم الكوني شبيه الى حد كبير بالجسم البشري والتـــاريخ يدل ، وخصوصا تاريخ هذا الجزء من العالم ، ان الجسم الكوني ، كالجسم البشري ، لا يلبث ان يرفض الاجسام الغريبة والمزروعة مهما طالت المدة او مهما كانت عملية الزرع ناجحة . ولكي لا أبعدك كثيرا عن اوروبا أحب ان اعطيك ايرلندا الشمالية كمثال . فقد بدا لزمن طويل ان الايرلنديين قبلوا او تقبلوا المستوطنين الذين جيء بهم من اسكوتلندا وغيرها خلال مرحلة اذلال ايرلندا . لكن فجأة قامت ثورة الوطنيين ولا تزال قائمة حتى الآن ... وبالتالي فان أبسط ما نتوقعه هو انتفاضة في الداخل من الوطنيين ضد المستوطنين ، تدعم او توازي الثورة التي شبهرها الذين تردوا مـــن الفلسطينيين ، في وجه العالم ، مع العلم طبعا ان الغزو الاسرائيلي بعد حرب ١٩٦٧ لم يعد غزوا لفلسطين وحدها بل كشف ما كنا نقوله للعالم عن كونه غزوا استيطانيا يهدد العالم العربي كله ...

ولم يرق هذا الجواب كثيرا للصحافي الالماني الغربي الذي جاء ... يناقش . وكان هذا ، بالفعل ، موقف معظم الالمان ، وبالطبع موقف معظم الاوروبيين الذين غسلت أدمغتهم طوال ربع قرن بدعاية صهيونية مركزة . أما المانيا الرسمية ، المانيا الدولة ، فلم يكن موقفها بعيدا ايضا عن هذا الموقف . كانت هناك قناعة اوروبية عامة ، باستثناء الموقف الفرنسي الموضوعي الذي اتضح في ايار ١٩٦٧ وما بعد ذلك ، بأن العرب قوة مفككة سوف يظل من السهل على اسرائيل قهرها ، خصوصا ما دامت هذه مدعومة بالقوة الاميركية بدون حساب .

... ثم وقعت حرب تشرين . أدركت اوروبا قبل غيرها ـــ وخصوصا المانيـــا الغربية ـــ انها مخطئة كثيرا في حساباتها وانه أصبح من السهل جدا الان على العرب قهر اسرائيل برغم القواعد الدولية القائمة وانهم استطاعوا ان يحطموا اسطورتها العسكرية برغم الجسر الجوي الاميركي الذي لا سابقة له ، بعدما استطاعوا عزلها